خاتمـــة

وبعد ..

فقد استعرضت الدراسة موضوع شعر التوبة والاستغفار عند المجان العباسيين ، واقتصر الحديث على هذه الطائفة من الشعراء الذين عرفوا بالمجون والعبث ، ثم أقلعوا عن مجونهم ، وتابوا إلى ربهم ، لظروف اختلفت عند كل شاعر عن غيره .

ومن الطبيعى أن يكون للمجتمع دور عظيم فى تهيئة الجو الملائم لانتشار تيارات اللهو والمجون ، بأنواعها المختلفة ، خاصة فى العصر العباسى المتحضر ، الذى قطع شوطا بعيدا عن البداوة ، فقد ساعد انتشار الديارات والحراقات ، وانتشار الجوارى وبيوت الخلاعة ؛ والاتصال بالثقافات الأجنبية والأجناس غير العربية ، فضلا عن استعداد الشاعر نفسه للخوض فى تيار العبث والمجون ، ساعد كل ذلك على انتشار تيار المجون فى المجتمع العباسى .

وكان للمجتمع – أيضا – دوره فى ازدهار تيار الزهد والنسك ، والتصدى للمجون ومحاربة أوجه العبث واللهو ، فقام الوعاظ والنساك ، والقصاص والزهاد ، بدورهم الواضح فى تأصيل هذا التيار ، كما ساعدت المساجد والخوانق وحلقات الوعاظ والمتكلمين على ازدهار هذا التيار فى المجتمع العباسى .

ولا يخفى دور الحاكم المسلم المسئول ، الملتزم بمسئوليته وبواجبه ، فى محاربة المجون ، وفى التصدى له ، وفى قتال المستهترين من المجان ، وإجبارهم على التوبة ، وقتل بعضهم إذا لم ينفع معهم النصح والزجر .

وقد أبرزت الدراسة الدوافع التى أدت بهذه الطائفة من الشعراء إلى التوبة ، وإلى الاقلاع عن المجون ، كما أبرزت – أيضا – مظاهر هذه التوبة ، ومضامين أشعار الشعراء التائبين ، بعد هجرهم المجون ومجالسه ومجالاته والقول فيه .

وقد تركزت هذه الدوافع التى دفعت الشعراء المجان إلى التوبة فى عدة أمور أساسية ، جاء فى مقدمتها ، أمر الحاكم ، وتهديده المجان من الشعراء وغير الشعراء ، تهديدا وصل به إلى قتلهم ، حين يتحدى الماجن إرادة الجماعة ، ويحطم شرائع الدين ، ويقوض أركان الاسلام ، ولا يمتثل إلى أمر المسئولين والحكام . وخشى بعض المجان من الشعراء من تهديد الحكام ،

فاضطروا إلى أن يقلعوا عن مجونهم ، ويعلنوا توبتهم ، وربما تذوق بعضهم حلاوة التوبة . وجمال الايمان ، فابتعد عن مجونه ، واستمر فى ابتعاده ، ملتزما بتيار التوبة والقناعة والزهادة . وربما عاد بعضهم إلى مجونة مرة أخرى ، ولكن قد جرب التوبة ، فعاد إليها ثانية ، دون تهديد أو التزام بها .

وقد رأينا موقف الخليفة المنصور من الشعراء ابن هرمه ومطيع بن أياس وأبى دلامة ، ورأينا موقف الخليفة المهدى من بشار بن برد ، وصالح ابن عبد القدوس وحماد عجرد ، ووالية بن الحباب وآدم بن عبد العزيز والحسين بن مطير ، كما رأينا موقف المأمون من أبى نواس ، وعلى بن جبلة العكوك ودعبل بن على الخزاعى ، كذلك رأينا موقف المتوكل من الشاعر على بن الجهم .

وقد تصنع بعض الشعراء التوبة ، حين أجبرهم الحاكم عليها ، كما تكلف بعض الحكام أيضا الالتزام بالجادة ، حتى ترسخ دعوته ، وحتى ينقى صورته من أية شائبة تعلق بها ، فتشينها فى عين المجتمع وفى نظر المعارضين ، وقد يتغير موقف الحاكم من الشاعر ، حسب تفهمه لدور الشاعر ، وحسب وضوح الرؤية له فيما بعد ، مثلما حدث بين بشار والمهدى فقد أعجب المهدى به أولا لحكمته ثم منعه من الغزل ثانية ، ثم اتهمة بالزندقة ، وتأكد المهدى من ثبوتها عليه فأمر بقتله .

ومن دوافع الزهد عند الشعراء المجان تلك المحن القاسية الخاصة ، التى نزلت ببعضهم ، فجعلتهم ينظرون إلى الحياة بنظرة تختلف عن سابقتها ، فتابوا وأقلعوا عن مجونهم ، وابتعدوا عن العبث واللهو ، ومن هذه المحن ما وقع لديك الجن حين قتل زوجته ورد بنت الناعمة ، التى قد أحبها وأسلمت من أجله ، وكان يغار عليها ، ثم تبين له بعد قتلها براءتها ، ففرض على نفسه العزلة ، واعتزل الحياة والأحياء ، وظل يقول فى شعره تائبا مستغفرا ، باكيا نادما . وكذلك ما وقع لابن المعتز حين ضاع ملكه ، وخاب أمله فى أن يصل إلى الحكم ، ويعتلى كرسى الخلافة ، وهناك محن أخرى وقعت لغيرهما من الشعراء كوفاة عزيز لديهم مثلما حدث لسعيد بن وهب وللشاعرين التيمى والصنوبرى .

ويعتبر الشيب من الدوافع الأساسية التى دفعت المجان من الشعراء إلى التوبة والزهد ، فقد رحب بعض الشعراء بالشيب ، ورأوا فيه نذيرا للعقل والاتزان ، والهيبة والوفاء ، وبعدا عن التهور والطيش وجهالات الشباب ، فأجبرهم الشيب على التوبة وعلى الاستغفار ، وقد لا يرى البعض فى زهد الشيب زهدا ، لأن الشيب يأتى بالعجز والشيخوخة والزهد لا يكون إلا مع القدرة والمقدرة ، كما لا تكون القناعة إلا مع الغنى والثراء .

وللعقيدة والاقتناع بالزهد أثرهما فى نقلة بعض الشعراء من المجون إلى التوبة والاستغفار ،

فقد اتضحت الرؤية أمام تلك الطائفة من الشعراء ، وانقشع الغيم من أمام أعينهم ، وعرفوا طريقهم ، وقد أمدتهم مصادر عدة بهذه الرؤية التى قتنعوا بها ، فقد كثر الكلام عن الزهد وفى الزهد ، وانتشرت مجالس الزهاد والصوفية وعلماء الكلام ، وكان هناك شعراء زهاد لم يعرفوا المجون أو لم يعرف عنهم مجون ، أو لم يصرحوا به ويفاخروا ، مثل سلم بن عياش ، وعبد الله بن المبارك واليزيدى ومحمد بن كناسه .

أما عن مظاهر الزهد فى شعر المجان التائبين فقد برزت فى بعض مظاهر أساسية استنادا على شعر هذه الطائفة من الشعراء ، وليس على ما عرف عنهم ، أو روى من أخبار .

وأولى هذه المظاهر وأبرزها التوبة ، فقد صرحوا بها واعترفوا بذنوبهم ، وقد مرت التوبة عند بعض الشعراءمثل أبى نواس بمراحل ، منها التوبة ثم الرجوع عن التوبة ، ثم العودة إليها . وهناك من الشعراء من رفض التوبة رفضا تاما وكره النصح ولم يقبل إعلانها أو الدخول فيها ، وذلك فى مرحلة من مراحل حياتهم فقد صرح برفضها السلامى والسرى الرفاء وديك الجن وسلم الخاسر .

وجاءت توبة بعض الشعراء متكلفة غير صادقة ، مثلما حدث مع بشار بن برد ، فقد كان يتظاهر بها بديعها خوفا من الحاكم وإرضاء له وخشية بطشه ، وكان بشار يمارس لذاته خلف شعار التوبة ، بينما كان أبو نواس صادقا فى كل مراحل توبته ، حين دخلها . وحين رجع عنها ، وحين عاد إليها .

وقد تشكلت صورة التوبة عند الشعراء المجان التائبين ، من مضامين أساسية أبرزها ، الاعتراف بالذنب والأقرار به ، والشعور بالندم ، وتصوير الحزن والخوف ، والتعبير عن طمعهم فى رضا الله ، واملهم فى مغفرته وثوابه ، كما غلب على تعبير بعض الشعراء الدمع والبكاء .

ومن مظاهر التوبة عند الشعراء تصويرهم للشيب ، وقد رحب به البعض ، ونفر منه البعض الآخر ، ولكنهم عادوا فتقبلوه ، فهو حقيقة واقعة ، وأمر لا ينكر ، ولا سبيل إلى تجاهله ، ومن أهم مضامين صورة الشيب عندهم : تصوير الشباب ، والترحم عليه ، وتصوير ما ضيهم والاستمتاع بتذكره ، وعقد المقارنة بين الشيب والشباب ، وقد صور بعضهم الشيب ووصفه بالعجز ، واقترانه بالموت ، وقد مدحه آخرون مثل دعبل الخزاعى ، وتندر بعض الشعراء من الشيب فى أشعار تتسم بالسخرية والدعابة - أحيانا - والمغالطة فى حساب السنين ، وأخفاء حقيقة أعمارهم ،وإدعاء الشباب . وقد رأى أبو العتاهية فى الشيب ناعياً ونذيراً بالموت والهلاك والفناء .

وكان موضوع تصوير الدهر ، وذم الزمان ، والشكو من الأيام من الموضوعات الواضحة فى

أشعار الزهد عند المجان العباسيين ، فقد صوروا تقلب الدهر ، ووصفوا غدره ، وذموا الدنيا والحياة ، التى بدلت السرور كدرا ، والصفو هما ، وقد بالغ أبو العتاهية فى ذمه الدهر وفى شكوى الأيام . كذلك ابن المعتز الذى أفاض فى شكوى الدهر متأثرا بما وقع له . ومن أهم مضامين هذه الصورة فى أشعارهم تصويرهم الدنيا فى صورة المخادعة الكثيرة الزيف ، الغادرة ، التى لا يستقر لها حال .

ويعد الحديث عن الموت وتصوير القبور من بين هذه الموضوعات التى اشتملت عليها أشعار التائبين من المجان ، وقد أفاض أبو العتاهية فى هذا الموضوع ، ومن أبرز مضامين تلك الصورة ، تصوير الموت والقبر ، وتصوير سكان القبور ، وما ألم بهم داخل القبر ، والمقارنة بين حياتهم وبين مماتهم ، فقد أصابهم البلى وعريت أجسادهم ونخرت عظامهم ، فأضحوا رميما ، بعد النعيم والغضارة والجمال والوضاءة . ولم يغلب على هذه الصورة الايجابية فى الدعوة إلى العمل الصالح ، واتخاذ مسلك التقى ، بل سيطر عليها اللون القاتم الكئيب التى بالغ فيه أبو العتاهية ، ولم يصل إلى مبالغته شعراء آخرون اشتركوا معه فى تصوير الموت والقبر ، ومنهم محمد بن يسير ، وأبو نواس وغيرهما .

ومن الموضوعات التى لم يغفلها المجان فى أشعارهم بعد توبتهم الحديث عن الصبر وعن القناعة ، وتفاخروا بالتحلى بها ، ودعوا إلى الأخذ بها ، وجاء ذلك فى إشارات بسيطة غير معمقه أو مفصلة ، وكان الوقت سرقهم فلم يعد أمامهم مجالا للصبر ، وفسحة لممارسته ، كما صوروا القناعة والتحلى بها ، وعدم الطمع فى ملذات الحياة والانخداع ببريقها الزائف ، ومن أبرز مضامين هذه الصورة تصوير البأس الشديد ، والعزيمة الجادة ، وتصوير الرضا والتعفف .

والاستغفار من الموضوعات التى أعطاها التائبون من المجان العباسيين حقها ، فقد استغفروا من ذنوبهم ، واستغفروا لربهم ، واعترفوا بآثامهم ، وصرحوا بتقصيرهم ، فبكوا وندموا ، وخافوا وحزنوا ، وسالت الدموع حارة وغزيرة وارتفعت أكفهم إلى السماء متضرعين بالدعاء ، وقد أخذ شعر الاستغفار عند بعض الشعراء شكل التلبية والتسبيح بحمد الله .

ومن الطبيعى أن تكثر الحكمة فى أشعار الزهد عند المجان العباسيين ، وفى بعض مراحل حياة هؤلاء الشعراء ، وكان لبعضهم فى مجونه حكما خاصة بالمجون ، وللتوبة حكما خاصة به أيضا ، وبدت حكمتهم مرتبطة بحياتهم الواقعية ، وبمشاهداتهم الملموسة ، وبتجاربهم الحية ، فعبروا عما خبروه ، وذاقوه ، وقد أوجز بعضهم القول ، فجاءت الحكمة عندهم بليغة مركزة مكثفة .

وقد انتهج بعض الشعراء نهج الوعاظ ، حين قدموا النصيحة المباشرة ، وهذا قليل نادر ، فى شعر الزهد عند المجان ، بينما أفاضت الحكم الأخرى فى الدعوى إلى الخلق الكريم .

وقد أكثر بشار والحمدونى من نظم الحكمة ، وصور على بن الجهم وديك الجن حكمهم من تجاربهم الذاتية ، وتجسدت الحكمة عند أبى العتاهية فى قالب من التشاؤم ، الذى يتسم بالخراب والموت والشؤم وغدر الزمان وتقلب الدهر .

ويأتى الحديث فى الفصل الثالث والأخير من فصول هذه الدراسة حول بعض السمات الفنية والموضوعية لشعر الزهد عند المجان العباسيين ، ولم تطل هذه الدراسة لإيمانها بهدفها الأساسى وهو التركيز على دوافع الزهد وعلى سمات الزهد فى أشعار المجان . وتركز الحديث فى السمات الفنية على اللفظ الذى عمد الشعراء إلى السهل منه ، وهجروا الغريب والوحشى ، ولم يصلوا بسهولة اللفظ إلى الهابط منه ، إلا فى بعض زهديات أبى العتاهية ، التى اتسمت بالنثرية ، وبالاقتراب من لغة الحياة اليومية . وذلك لانقطاعه إلى القول فى الزهد ، ولارتجاله القول أحيانا ، ولرغبته فى أن يكون مكثرا ، فجاء ذلك على حساب الجودة الفنية .

ويعد التكرار من سمات التعبير عند بعض الزهاد من المجان ، حين وجدوا أنفسهم محصورين فى دائرة واحدة ، لا يخرجون منها ، وهى التوبة والاستغفار . وقد اعتمد بعضهم فى تعبيرة على الأخذ من القرآن الكريم . والحديث الشريف .

إما عن التصوير الفنى ، فمن الملاحظ أنهم لم يهتموا به ، ولم يبذلوا جهدا فى صياغة الصورة الفنية ، إلا ما جاء عفو الخاطر دون تكلف أو تعمد ، فلم يكن الغرض هو إظهار المقدرة الفنية ، بقدر ما كان الهدف إظهار التوبة والاستغفار . ولم يمنع ذلك من وجود الصور الفنية فى شعرهم ولكنها جاءت قريبة المأخذ سهلة الصياغة ، فى غير حاجة إلى تفسير أو تأويل .

وتعد المقابلة من أبرز ألوان البديع التى توسل بها الشعراء فى زهدياتهم ، وفى تعبيرهم عن الأمس واليوم ومقارنتهم بين الماضى والحاضر ، بين المجون والزهد .

ولم يسلك الشعراء مسلك أبى العتاهية حين اختص الزهدية بقصائد كاملة ، وبمقطوعات مستقلة ، فقد عبر أكثر الشعراء عن توبتهم فى أبيات قليلة ، أو مشتركة مع بعض فنون الشعر الأخرى ، التى تليق بها ، مع الحكمة ومع المدح ، ومع الشكوى من الدهر ، ومع تصوير المحن والنوازل وغير ذلك من الموضوعات . وربما أتى الشاعر بأبياته فى مقطوعة لا يظهر فيها غير الزهد ، وربما جاءت توبته أو استغفاره فى ثلاثة أبيات أو فى بيتين .

وقد اتسم شعر الزهد عند المجان بسمات فكرية ، اختلفت فى حدتها عند الشعراء ، ومن أبرزها البؤس والاستسلام ، والتخاذل والانهزامية أحيانا ، والحزن والندم ، والإحساس بالذنب والشعور بالخوف ، والتفاؤل والايجابية عند بعضهم والطمع فى رحمة الله وغفرانه .

ويعد الاسلام وشرائعه من أغنى المصادر التى استمد الشعراء منها أفكارهم ، فى بساطة

ووضوح ويسر ، وفى بعد عن الغرابة والتعقيد والتفلسف ، فبدا الشاعر التائب المستغفر بسيطا واضحا مع نفسه ، صريحا فى التعبير عن ذاته ، صادقا فى تصوير مشاعره ، فجاء قوله جميلا جمال توبته ، نقيا نقاء رغبته ، صادقا صدق مشاعره وحسه ، فأضفى ذلك كله على شعر التوبة والاستغفار عند المجان العباسيين الصدق والبساطة والوضوح والجمال ..

تم بحمد الله

أستاذ دكتور على إبراهيم أبو زيد
العين - أبو ظبى - ٥ / ٣ / ١٩٨٦
جامعة الإمارات العربية المتحدة